من أدب الرحلات

للأستاذ عبد الله حمد الحقيل

يحرص كثير من الرحالة الذين تتاح لهم الظروف على التجول في الأرض لمشاهدة البلدان والآثار والمعالم والسهول والجبال والأنهار والبحار والطرائف والأحداث والعمران واللغات والعادات والتقاليد والثقافة والعلم والمعرفة بحيث يصفون مشاهداتهم ومعلوماتهم عن خبرة ودراية.. فلا يخزنونها لأنفسهم فقط ويضنون بها على القراء..

لذا فإن أدب الرحلات أدب شهي لذيذ بما يقصه من ذكريات وأخبار ومعلومات عن أحوال الأمم وما يتميز به من عادات وتقاليد.. ولقد كان أسلافنا يهتمون به ويحرصون عليه ويدونون ذكرياتهم وانطباعاتهم ورحلاتهم ويقصون ما يحدث لهم من مشاهدات ومشقات وضياع وما يعترضهم من قطاع الطرق، وكثيراً ما وقعوا في قبضتهم.. فقد كانت الأسفار قديماً مشقة وعناء ونصباً وكان

السفر من بلد إلى بلد يستغرق أياماً وشهوراً بل أعواماً.. حيث كانت المواصلات هي الإبل والدواب والسفن الشراعية التي تمخر عباب البحار وتسيرها الرياح وتتعرض للعواصف والرياح والأرزاء..

وقد استأثر أدب الرحلات باهتمام كثير من طبقات مثقفي العالم قديماً وحديثاً وعني به أعلام بارزون عبر أطوار التاريخ فتركوا لنا منه ثروة تعتبر من أهم روافد الثقافة على اختلاف مناهج الرحّل من أجناس العالم..

لقد كانت الرحلات فيما مضى عملاً شاقاً وأسلوباً مضنياً كما يقول أحدهم:

نشق الفيافي فدفدا بعد فدفد
جبالاً واوعاراً وارضاً وطية

ورحم الله أسلافنا الذين سلكوا فجاج الأرض وجابوا الأمصار وركبوا متن البحر وصارعوا هياجه وتحملوا اضطرابه وواجهوا أعاصيره وتكبدوا العنت والإرهاق في جوب القفار والسير في الفيافي والمفاوز ..من أمثال ابن جبير وابن بطوطة والسيرافي وياقوت الحموي والهمداني والبكري والمسعودي والأصمعي والأصفهاني والزمخشري وابن وهب القرشي وابن فضلان.. ولقد كان لإخواننا المغاربة نشاط كبير في هذا الميدان؛ فلهم كتب كثيرة ولم يطبع إلا القليل منها وما تزال موجودة في خزائن دور المخطوطات. وخلال زياراتي لبعض المكتبات في فاس والرباط رأيت الكثير مخطوطاً، وبعضها مصور على شريط (ميكروفيلم).

وهكذا فإن لأدب الرحلات شأناً كبيراً. ولقد حفل تراثنا العربي الإسلامي بنماذج عظيمة، وترك أسلافنا ثروة كبيرة تعتبر من أهم روافد الثقافة والتاريخ والأدب. وإذا كانت الرحلات بالأمس ممارسة شاقة فإن الرحلات في هذا العصر أصبحت ممتعة بفضل تطور وسائل المواصلات. والرحلات بطبيعتها سبيل من سبل المعرفة ومعين ثر للفائدة والاطلاع والمشاهدة ولذا نرى البعض يحرص على الاستفادة منها كما قال أبو تمام:

كان به شوقاً إلى كل جانب
من الارض او ضغنًا على كل جانب

ولكم أثار هذا البيت اهتمام الدكتور طه حسين حيث قال لا أعرف بيتاً تتسع آفاقه وتبعد آماده ويجمع الأرض كلها في كلمات معدودة مثل هذا البيت.

واستجابة لرغبة أخي رئيس التحرير فإنه يسعدني أن أقدم جانباً من هذه الرحلة التي قمت بها إلى اليمن.

منذ مدة والنفس تحدثني بزيارة اليمن والوقوف على معالمها وأخبارها وآثارها.. ولكم قرأت الكثير من كتابات المؤرخين اليمنيين ممن لهم باع في التاريخ تأليفاً وتحقيقاً ودراسات ولقد تتبعت كتابات مؤرخ اليمن المعروف أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني صاحب الاكليل وصفة جزيرة العرب الذي تبعه واعتمده الكثير من المؤرخين والمحققين من قدامى ومعاصرين وكذا صاحب معجم البلدان «ياقوت بن عبد الله الحموي».. وغيرهم فقد أحاطوا بأوصاف تلك البلاد وتاريخها ومعالمها وآثارها وما يتعلق بأوصافها وآدابها وشعرائها. وقد سميت بالخضراء كما يقول الهمداني لكثرة أشجارها وزروعها وثمارها، ولقد كانت حفاوة العلماء والمؤرخين والباحثين كبيرة في هذا المجال كل ذلك شدني إلى الوقوف على تلك المعالم فتطلعت إلى الفرصة المناسبة للقيام برحلة إلى تلك الربوع.. فصادف أن تلقيت دعوة كريمة من مدير جامعة صنعاء ورئيس مركز البحوث والدراسات اليمني بالحضور للمشاركة في أعمال الدورة الثامنة للمراكز والهيئات العلمية المهتمة بدراسات الخليج العربي والجزيرة العربية فتوجهت يوم الجمعة الموافق ١٧/١٠/١٤٠٥هـ على متن إحدى طائرات البوينج، وقد أقلعت بنا الطائرة من الرياض في رحلة استمرت زهاء ثلاث ساعات حيث مررنا بمدينة تعز ولقد كنت أشاهد من عال جبال السروات ثم جبال اليمن الشامخة(١) حتى وصلنا إلى صنعاء المدينة التاريخية والتي كتب عنها المؤرخون كثيراً، فهي من أقدم المدن، نعم ها هي صنعاء والتي قال فيها أبو محمد الحسن الهمداني:

ارض تخيرها سام واوطنها
واسى غمدان فيها بعدما احتفرا
ام العيون فلا عين تقدمها
ولا علا حجر من قبله حجرا

وقال أيضاً أحمد الرداعي وما أكثر ما

---

(١) مردداً قول الشاعر:

إذا مضى علم منها بدا علم ∴ وإن مضى علم منه بدا علم

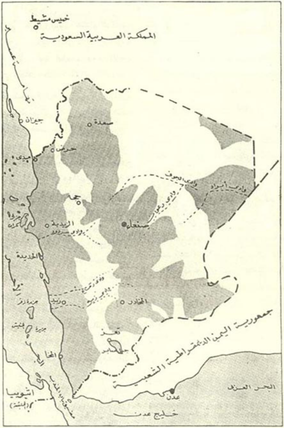
خميس مشيط
المملكة العربية السعودية
تهامة عسير
جيزان
صعدة
حرض
ميدي
حجة
جزيرة كمران
الزيدية
وادي سردد
صنعاء
وادي الجوف
وادي أبواد
وادي دعوان
الحديدة
وادي رماع
وادي زبيد
زبيد
جزيرة زقر
جزيرة حنيش
المخادر
تعز
جبل صبر
المخا
باب المندب
اثيوبيا
(الحبشة)
جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية
عدن
خليج عدن
البحر العربي

« خريطة الجمهورية العربية اليمنية »

قال الشعراء ولعله يؤرخ هنا لها:

صنعاء ذات الدور والأطام
والقدم القدام ذي الأقدام
والعز عن ذي السطوة الغشام
است بعلم لابن نوح سام
يعلم رب ملك علام
إذا رادها سام بلا توهام
ورادها من قبل الفي عام
ما بين سفحي نقم النقام
وبين عيبان العبير السام
فاسها في سالف الايام

ويقول الهمداني:

ما زال سام يرود الأرض مطلبا
للطيب خير بقاع الأرض يبنيها
حتى تبوا غمدانا وشيدها
عشرين سقفاً يناغي النجم عاليها

فلقد كانت معشوقة الشعراء وما أكثر ما قرأنا من أشعار رقيقة يتغنون فيها بقصائد مفعمة بالحنين والشوق لهذه المدينة وكنت أتلفت يمنة ويسرة في ربوع هذه المدينة، وأنا في طريقي إلى فندق «سبأ» فأرى فيها تاريخ الحياة لأمم عديدة تذكرت خلالها عرش بلقيس وسد مأرب وسبأ وحمير ومعين والتتابعة وسيف بن ذي يزن ... الخ

وحضارة مأرب ومدنيتها. وهي حضارة رواها القرآن الكريم في سورة سبأ وأطلق عليها المؤرخون اسم أرض (الجنتين)..

مدينة «مأرب» هي العاصمة التاريخية لليمن، وتقع على بعد ١٧٠ كيلا شرق العاصمة صنعاء وتربطها بالعاصمة طريق مرصوفة..

وهي مدينة مشهورة عاشت حضارات دول غابرة هي دول معين وسبأ وحمير، وبها آثار تلك الحضارات من منشآت ومعابد مثل معبد الشمس، وطرق وسدود لا تزال أطلالها شاهدة. وقد حظيت هذه المدينة الأثرية - وخصوصاً منذ مطلع هذا القرن - باهتمام الباحثين وعلماء الآثار العرب والأجانب، كما شدت إليها السواح من كثير من بلدان العالم، وكتبت عنها عدة مؤلفات وأبحاث، كما حظيت اللغة اليمنية القديمة وأبجديتها التي توجد نصوص منها منحوتة على الصخور والكهوف والجبال في مدينة مأرب وما جاورها باهتمام كثير من الدارسين اليمنيين الذين أخرجوا عدداً من هذه النصوص التي تسمى (خط المسند)

وقاموا بترجمة مفرداتها التي لا يزال البعض منها ينطق حتى اليوم ضمن بعض اللهجات اليمنية..

وفي اليمن معالم تاريخية كقصر غمدان الشهير ومسجد الصحابي الجليل معاذ بن جبل وجامع صنعاء والهمداني والزبيدي وعمرو بن معد يكرب وغير ذلك مما هو موضع اهتمام الباحث والمؤرخ والأثري والأديب.

وتذكرت الرحالة المعروف أمين الريحاني وهو يدخل صنعاء مبهوراً بزحمة التاريخ وجلال الزمن. حقاً إن الحديث عن هذه البلاد وما فيها له نكهة تاريخية تستهوي القارىء والمؤرخ والرحالة بل وعلماء التاريخ والآثار.

إن صنعاء مدينة محاطة بالجبال تمتد شرقاً وغرباً كأنها وهي كلها بيضاء سلسلة من التلال في سهل مخضر جميل وعن شمالها وجنوبها هضاب وآكام وأودية.. وهكذا نزلنا في صنعاء مردداً قول الإمام الشافعي رحمه الله الذي سار سير الأمثال:

«لا بد من صنعاء وإن طال السفر».

وقول الشاعر:

يا حبذا انت يا صنعاء من بلد
وحبذا واديك الظهر والضلع

وما أكثر ما بكى شعراء اليمن بين يديها ومن ذلك قول أحدهم:

إني إلى صنعاء يحملني
وجه النهار وترحل الأصل

فمتى تظللني ماذنها
ويضيء من احضانها الجبل
اموت يا صنعاء مغترباً
لا الدمع يدنيني ولا القبل

لقد اطلعت خلال الزيارة على الكثير من المعالم والآثار التاريخية حيث تمكنت من التجول بين عدد من المدن والقرى .. ولقد قمت بزيارة لجامع صنعاء الكبير والذي بناه ابان بن سعيد وقيل أيوب بن يحيى في السنة السادسة للهجرة وقد بنى بأحجار كبيرة ضخمة متقنة النحت به زخارف ونقوش وسقفه تحفة من تحف الفن الإسلامي النادرة ويحيط بالسقف من جميع جنباته حزام خشبي محفور عليه آيات من القرآن الكريم بالكتابة الكوفية.

وفي هذا الجامع مكتبة ضخمة تحتوي على مجموعة كثيرة من

المخطوطات والمصاحف المكتوبة على الرق بالخط الكوفي والحجازي على مختلف الأحجام. وقمت بزيارة لدار الكتب والمخطوطات المجاورة للجامع حيث استقبلنا الأخ عبده حسين صلاح حيث قام يشرح لنا المعدات الفنية لترميم المخطوطات وتجليدها وتصويرها وفرز كل نوع على حدة.. ثم دخلنا قاعة معرض المخطوطات الحافلة بشتى المخطوطات المكتوبة بالخط الكوفى والحجازي والنسخى. وكذا بعض النقوش وحروف المسند.

والواقع أن الجامع يزخر بثروة كبيرة من المخطوطات في شتى العلوم والمعارف. ومن جامع صنعاء خرجنا نتجول في وسط المدينة القديمة ومشاهدة بيوتها وآثارها فزرنا قصر غمدان ومسجد صلاح الدين وغرفة القليس وسوق الملح وغير ذلك من أحيائها القديمة وحواريها وتراثها المعماري والأثري وأبوابها العشرة. أما مبانيها فهي تضم أنماطاً من المباني أولاً المباني العربية والتي كانت شائعة قبل الإسلام ثم النمط الإسلامي الذي انتشر وشاع بعد ظهور الإسلام ثم النمط العثماني وكل صنعاء القديمة مازالت تحتفظ بكل هذا التنوع مع ملاحظة الزخرفة وتعدد الطوابق.

حقاً إن صنعاء لمدينة قديمة يقال إنها أول مدينة عمرت بعد الطوفان وسميت باسم بانيها سام بن نوح. ولكم حفلت كتب التاريخ والأدب بأخبارها. وهناك عدد جم من الشعراء والمؤرخين والأدباء عنوا بوصفها وآثارها ومعالمها ونقوشها وأنسابها وتاريخها وأخبارها.

دار الكتب والمخطوطات:

قمت والصديق الدكتور عبد الله الغنيم عميد كلية الآداب بجامعة الكويت ورئيس تحرير مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية بزيارة لهذه الدار الحافلة بخزائن المخطوطات وقد استقبلنا رئيسها القاضي اسماعيل بن علي الأكوع وهو من المحققين والمشتغلين بكتب التراث وله اهتمام وخبرة بالمخطوطات والتقينا عنده بكل من مدير المتحف الأستاذ زيد بن علي عنان وبعض الأخوة العلماء فكان الحديث عن الكتب والمخطوطات والوثائق ودور مراكز البحوث والمخطوطات في نشر ذلك

واهمية الحفاظ على التراث ودور العلماء والباحثين.. وجهود البعض من المستشرقين في هذا المجال وأهمية تسهيل الحصول على المخطوطات للباحث والاستفادة منها بأسهل الطرق.. ولقد أمضينا وقتاً ممتعاً انغمسنا خلاله في أغوار التاريخ والتراث والعلم. حقاً إن واجب جامعاتنا ومراكز البحوث الاهتمام بالتراث وتحقيق المخطوطات كما أن الكثير من المخطوطات مهدد بالضياع ما لم نبادر إلى صيانته وتعقيمه وحفظه خاصة ما كتب منه على الرقوق والجلود كما أن الاهتمام بالوثائق ناحية مهمة باعتبارها مصادر مهمة في البحث والدراسة.

زيارة السفارة السعودية:

قمت بزيارة لسفارتنا وقد وجدت من سعادة السفير الأستاذ علي القفيدي كل حفاوة وتقدير ولقد حرص/أكرمه الله/على إكرامي فدعاني للغداء وألح ولكني اعتذرت فقال لي لابد من ذلك فقبلت دعوته على الغداء حيث دعا الأخوة السعوديين فكان لقاء أخوياً ودياً وفي اثناء وجودي هناك رغبت في زيارة مكتب الملحق التعليمي السعودي ولقد سررت بما يقدمه المكتب من خدمات جليلة حيث أن هناك بعثة تعليمية سعودية كبيرة تقوم بالتدريس في مختلف المناطق. وحكومتنا الجليلة تأتي في مقدمة الأمم بذلاً وعطاء حيث بناء المدارس والمستشفيات والطرق والمساجد.. ثم خرجت من مكتب الملحق التعليمي بعد أن زودني بمجموعة من صحف بلادنا..

زيارة مدينة تعز:

وفي الصباح الباكر ذهبنا إلى مدينة تعز وانطلقت بنا السيارة شطرها وكان الطريق مائتين وخمسة وستين كيلاً جنوب العاصمة ومررنا بمناطق خضراء وجبال مجللة بالجمال والخضرة وسهول تغطيها المزارع ومررنا بعشرات البلدان والقرى كذمار، والتي سبق أن تعرضت لكارثة الزلزال حيث شاهدنا آثاره وكذا اب ويريم وغيرهما من القرى والبلدان وهي أجمل مناطق هذه البلاد، ولقد صعدنا جبالاً شامخة فارعة فكنا نرتفع تارة ونهبط أخرى إنها لقمم شامخة خطرة كجبل سمارة الشهير وكان

مرافقي الأخ محمد المعلمي يشرح لي أسماء هذه الأماكن والجبال والوديان وكان السائق ماهراً حاذقاً بالطريق فعندما رآني مكتئباً من وعورة الطريق قال لي لا تخف فقد ترددت مع هذا الطريق عدة سنوات ومازلت أتردد بين جنباته فهو شيء سهل فقلت زادك الله نشاطاً وقوة ومهارة فعليك بالرفق ففي التأني السلامة وفي العجلة الندامة. ولقد تعودت على صعود واجتياز مناطق جبلية أصعب منها.

ثم لاحت لنا تعز المدينة الخضراء يحتضنها الجبل الأشم «صبر» وهي مدينة جميلة تقع على الربوات المتناثرة هنا وهناك تغريك خضرتها وجبالها وجمال مبانيها. وقد زرنا أسواقها القديمة وجامعها وحصونها القديمة وجبالها الجميلة وقمت بزيارة للمتحف الوطني.

ثم غادرناها إلى بعض القرى والأرياف حتى عدنا إلى العاصمة بعد أن مررنا بالعديد من قصور اليمن ومعاقلها الكثيرة والأثرية وهي غاية في فن العمارة والنقش ومن القصور التاريخية التي لا زالت باقية قصر غمدان وصرواح وناعط وفيه يقول الهمداني:

فمن كان ذا جهل بأيام حمير
و آثارهم في الأرض فليات ناعط
يجد عمدا تعلو الفنا مرمرية
وكرسي رخام حولها وبلائط
ملاحقها لا ينفذ الماء بينها
ومبهوقة مثل الفراخ خرائط
ترى كل تمثال عليها وصورة
سباعاً ووحشاً في الجبال وباسط

وفي قصر صرواح يقول الشاعر:

ابونا الذي كانت بصرواح داره
وفي جبل النعمان عز تمكنا
ونحن ورثنا عز خولان ذي الندى
مآثر عز مثلها لم يدم لنا

وقبل أن نعود للعاصمة لاحت لنا قصورها فتذكرت قول الشاعر:

إذا طلعنا جبال السود لاح لنا
من أرض صنعاء معطاف ومرتبع
يا حبذا انت يا صنعاء من بلد
وحبذا واديك الظهر والضلع

وطلبت من مرافقي أن نعرج لمشاهدة هذين الواديين ثم عدنا إلى الفندق بعد رحلة حافلة بالأدب والتراث والمعرفة والآثار والمشي والبرد وهطول المطر واستغرقت في نوم عميق حتى الفجر حيث الاستعداد للسفر مردداً قول القائل:

نزلنا هاهنا ثم ارتحلنا
فدنيانا نزول وارتحال

○○○○